المجمع العلميّ العربيّ في دمشق

نظر وطني اجتماعيّ للاب لويس شيخو اليسوعيّ

لم تتعرّض حتى الآن مجلّةُ المشرق لذكر المجمع العلميّ العربيّ الـذي أُنشئ في دمشق قبل خمس سنين وليس ذلك جهلًا او تجاهلًا يخدمهِ الّا أنّنـا كنّا ننتظر ان ترسخ تلك الغرسة الجديدة في تربتها وتزكو اثمارهـا لنُعمل فيها نظر الانتقـاد لئلّا يُحمَل كلامنا على الهوس والمبالغة ولاسيما انّ اعضاء ذاك المجمع الفضلاء نظمونا على غير استحقاق في سلك جمعيّتهم فينسب القرّاء كلامنا الى غرض في النفس

امّا اليوم وقد ترعرع المولود ولم يعُد يُخاف عليهِ من طارئ يطرأ وجدانهِ فلا بأس من وصف مآثرهِ وطيب جناه واجالة رائد الطرف في الطور الاوّل من حياتهِ

*

واوّل ما يعنّ لنا في ذكر المجمع الموما اليهِ استحسانُنا لاختيـار اعضائهِ دمشقَ الفيحاء كمركز لمشروعاتهم ونشر ثمـار افكارهم. وكلّ يعلم ما للفيحـاء من المقام الرفيع في جانب الآداب العربيّة وذلك بموقعها الجغرافي ثمّ بتأريخها واخيرًا بموقفهـا الحاليّ

امّا موقعها الجغرافيّ فانّهُ احقّ من سواه لتأليف مجمع علميّ فان دمشق ليست فقط حاضرة الشام فانّها ايضاً قلبُ العـالم العربيّ لتوسّطها بين الامم الناطقة بالضاد بعيدةً من وطأنة الاتراك ومن عجميّة العراق ومن وحشة جزيرة العرب قريبـةً من الاقطار الاوربيّة بفُرضتها بيروت منبسطةً بين جنّاتها الرائعة وانهارها الزاخرة تُوصلها خطوط سككها الحديديّة بحواضر سوريّة وفلسطين والاصقاع العربيّة

امّا تاريخها فلا يجهلهُ صغير ولا كبير. فانّ فيها قامت الـدولة الامويّة فكانت في دمشق اوّل نهضةٍ للآداب العربيّة المنظّمة ولم يُطمَس قطّ نورها مع علوّ منار بغداد ايّام بني عبّاس وكفى دليلًا على قولنا ما أُنشئ فيها من المدارس المتعدّدة ونبغ فيها من اماثل الادباء والفقهاء والخطباء والمؤرخين ممّن يطول تعدادهم

وكذلك موقفها الحالي يجعلها اجدر من سواها لتعزيز العلوم العربيّة وقد حفلت

فيها اسباب رقيها بوفرة علمائها الناطقين بالضاد وبطابعها وصحفها ومنشوراتها العربيّة وبمكاتبها العموميّة والخصوصيّة وبأبنيتها العربيّة التاريخيّة من جوامع ومساجد ورباطات وقصور وبمدارسها الوطنيّة والاجنبيّة وفيها مقام بطريركي الروم الكاثوليك والروم الاورثوذكس

وزد على ذلك تنشيط الدولة المنتدبة لكل المشروعات الادبيّة وهي التي عزّزت في بلادها الدروس العربيّة وأحيت كثيراً من دفائنها وقد انشأت في دمشق متحفاً للآثار العربيّة واقامت فيها مكاتب لتخريج التراجمة المدنيين والعسكريين

فكان ذلك كلّهُ داعياً لتأليف مجمع علميّ عربيّ في دمشق فضلاً عن سواها

ومع حسن اختيار الموقع نجد في تأليف اعضاء المجمع داعياً آخر لنتوسّم فيهِ الخير فانّهُ يرأسهُ رجلٌ امتاز بمعارفهِ الواسعة ومنشوراتهِ المتعدّدة ألا وهو السيد محمد كرد عليّ الذي تخرّج على الآداب العصريّة ونال حظّاً من اللغات الاجنبيّة واختلط في الحلّ والترحال بالاتراك والفرنسويين والالمان وتجوّل في بلادهم وعاين معاهدهم العلميّة والفنيّة واجتمع بأعيانهم فكان ترشيحهُ لرئاسة المجمع العلميّ العربيّ ثقة بخبرتهِ فأسندت اليهِ تلك المهمّة رجاء ان يقوم بواجباتها مع ما خوّلهُ الله من سعة النظر والنشاط في العمل

وكذلك اعضاء المجمع العلميّ فان في اختلاف عناصرهم من وطنيين واجانب وفي تباين اديانهم من مسلمين ونصارى وموسويين وفي امتياز مناصبهم من ارباب دنيا ودين ضامناً لثبات هذا الصرح العلميّ ورقيهِ فضلاً عمّا يستدعي ذلك من نشر الكتابات في علوم شتى والابحاث في المعارف المتشكلة الّا السياسيات والمجادلات الا ينجم عنها من المناقشات والمنازعات وتفريق الكلمة

وازداد المجمع المذكور ثباتاً (كما جاء في لائحة المجمع لسنتهِ الخامسة) بالحاقهِ مؤخّراً برئاسة الاتحاد السوري السامية التي عُهدت الى أحد نجباء تلامذة كليّتنا البيروتيّة صاحب الفخامة السيّد صبحي بك بركات الخالديّ «فضُمّت للمجمع حياتهُ وكانت كلّ حين مهدّدة بالقضاء عليها لأغراض شخصيّة طُبعت عليها لا تهتمّ حتى لمشخّصاتها ومقوّماتها» (نصّ اللائحة) . فقرّرت لجنة المعارف تأسيس «الجامعة السوريّة» مؤلّفة من المجمع العلمي ومعهدَي الطبّ والحقوق فوافق على الامر فخامة

الجنرال ڤيغان المفوّض السامي للجمهوريّة الفرنسويّة

وقد عرفت الحكومة ما يُبنى على المجمع من الآمال الطيّبة اذ جعلت دار الكتب العربيّة (مكتبة الملك الظاهر) تحت ادارته فوسّعها ونظّم شؤونها حتى ضاقت اليوم بمحتوياتها فلابُدَّ من نقلها الى مكان اوسعَ ارجاء واتمَّ اهبةً. وكذلك خصّ بالمجمع المدرسة العادليّة المنسوبة الى الملك العادل اخي السلطان صلاح الدين يوسف الأيوبي لقربها من دار الكتب لكي تُعقَد فيها جلسات المجمع وتُقام في احدى ردهاتها الحفلات الادبيّة كالخطب والمحاضرات والقاء الدروس الليليّة. وفي بعض غُرف المدرسة عينها عُرضت الآثار القديمة المكتشفة في دمشق وغيرها من انحاء الشام كحوران وتدمر بينها الدُمى والتماثيل الحجريّة والاواني المعدنيّة والزجاجيّة والخزفيّة والنقود القديمة والاسلحة. فصار المقام فخماً يقصده الزوّار والسيّاح ويثنون بسببه على المجمع العلميّ وآله

ولمّا كان للمجامع العلميّة لسان حال ينشر اعمالها ويصف مآثرها ويدوّن ما يأتيها من المراسلات في مواضيع العلوم والفنون مع ما يُلقى فيها من المحاضرات رأى المجمع العلميّ العربيّ ان يُصدر لهُ مجلّةً تنطق بتاجرّياته وتُثبت مكتشفاته ومقترحاته

وفي اوائل السنة الحاضرة دخلت المجلّة في سنتها الرابعة وقد اطّلعنا على مضامينها فاذا هي تستغرق نحو ١٢٠٠ صفحة والغالب عليها اللغة والمواضيع اللسانيّة والآثار الخطّيّة التاريخيّة والادبيّة ووصف البلدان. ومن انفس ما وصفهُ هناك السيد سعيد افندي الكرمي (١ : ٣٢) كتاب الملاحة «المعنون بكتاب الفوائد في معرفة علم البحر والقواعد» لابن ماجد من اعيان القرن التاسع للهجرة دخل منهُ نسخة خطّيّة في مكتبة الملك الظاهر. وهذا الكتاب قد باشر المسيو غبريال فرّان (G. Ferrand) بنشرهِ في باريس بالطبع الشمسيّ. وقد ظهر منهُ عدّة اقسام وسيُلحقهُ متولّي نشرهِ بترجمتهِ الى الافرنسيّة ويذيّلهُ بالملحوظات المهمّة كما افاد في المجلّة (١ : ٢٨١) الاستاذ بولس الخولي

ومن وصف الكرميّ (١ : ٦٥) كتاب شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي المتوفّى سنة ١٠٨٩ هـ (١٦٧٨ م) ذكر فيهِ منذ اوائل الهجرة مشاهير المتوفّين سنةً فسنة مع معلومات اخرى عديدة

ولأديب العراق محمود افندي شكري الالوسي (١١ : ٧٧و ١١٠) رسالة في الالوان عاق فيها شروحاً على قصيدة للشيخ علي بن العز الحنفي الشهير بالشارح الجارح. كما انه شرح منظومة عمود النسب التي وضعها الشيخ احمد الشنقيطي (٣ : ١٠٥)

ووصف السيد عبد القادر المغربي كتاب تهذيب اللغة للازهري (١ : ٢٧١) وهو من أمتع كتب اللغة كنا اطلعنا في حلب على نسخته المحفوظة في المكتبة الاحمدية وقد نشر منهُ قسماً صغيراً المستشرق الاسوجي زترستين — وللسيد المغربي ايضاً وصفٌ حسن لكتاب تاريخ حكماء الاسلام للبيهقي وانتقادهُ لهُ بانصاف (٢ : ١٩٣) — ونشر صديقنا الكاتب الضليع عيسى افندي اسكندر المعلوف رسالة تدبير المنزل المنسوبة لأرسطو الفيلسوف عن مجموعة قديمة من خزانة كتبه

ومن المخطوطات النادرة التي نُشر قسمٌ منها كتاب الازمنة لقطرب (٢ : ٣٣ و ٩٥) والكتاب قد دخل بعد ذلك في مكتبتنا الشرقية وهو طويل لعلنا ننشرهُ بتمامه

واثبت جناب احمد باشا تيمور (٢ : ٧٣) لمعةً من احد كتب مكتبته الغنية بالنوادر الذي عنوانهُ «الاعلان بالتوبيخ لمن ذمَّ التاريخ» لاحد مشاهير الكتبة الشيخ السخاوي المتوفى سنة ٩٠٢ هـ (١٤٩٦ م)

وقد ذكرنا الفصلُ المنشور (٢ : ٢٣٦) من «كتاب الانصاف والتحري عن دفع الظلم والتجري عن ابي العلاء المعري» لابن العديم الحلبي المتوفى سنة ٦٦٠ هـ (١٢٦٢ م) بما كتبناهُ في المشرق (٤ [١٩٠١] : ١٠٦٨) تحت عنوان : «تبرئة ابي العلاء من وصمة الكفر الشنعاء»

ومن نوادر الكتب الموصوفة هناك (٣ : ٢) كتاب بستان الاطباء وروضة الالبّاء لموفق الدين اسعد المعروف بابن مطران الدمشقي المتوفى سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) وقف على عدة كراريس منهُ السيد محمد رضى الشبيبي. وهو سفر جليل يتضمن عدة معلومات عن اخبار الاطباء القدماء. وقد نقل منهُ قطعاً ابن ابي اصيبعة في كتابه عيون الانباء في اخبار الاطباء — ومثلهُ شأناً وصفهُ لمجلدين من تاريخ بغداد لابي بكر الخطيب البغدادي (٣ : ١٢٩ و ١٦١ و ٢٦٠)

ومما استفدنا من تعريفه ذخائرُ القصر في تراجم نبلاء العصر لابن طولون الحنفي

المتوفى سنة ٨٨٠هـ (١٤٧٥م) وصفهُ الكاتب البارع عيسى افندي اسكندر المعلوف (٣:٣٣) ونقل عنهُ نبذًا حسنة — ووصف السيد كرد علي كتاب الباشات والقضاة لمحمد بن جمعة الشاذلي (٣:٧٢) وروى منهُ شذرات عن نسختي برلين ومونيخ — واحسنَ ايضاً بوصف كتاب آخر من مخطوطات برلين وهو كتاب الاعيان للشيخ حسن البوريني الشاميّ المتوفى سنة ١٠٢٤ هـ (١٦١٥م)

تلك مآثر قديمة تولّى اعضاء المجمع وصفها بعد احيائها فافادوا واجادوا

وفي مجلّتهم الابحاث اللغويّة المعتبرة كمقالات الاقلام والاعلام بمعاني الاعلام وتفسير الالفاظ العبّاسيّة في نثوار المحاضرة واللغة والدخيل فيها وخواطر في المعرّبات على الرغم مما ورد فيها من التعسُّف الظاهر

ومن المقالات التاريخيّة والجغرافيّة والاثريّة المتعلقة بجباية الشام في الاسلام وحقائق تاريخيّة عن دمشق وحضارتها والمجامع العلميّة في العالم وغابر الاندلس وحاضرها لولا بعض الشطط فيها. وكذلك آثار دمشق والآثار الشرقيّة القديمة ووصف بعض المكاتب العموميّة والخاصّة فكلّ ذلك مما يسطّر للمجمع العلميّ الدمشقي تاريخاً جليلاً يخلّد ذكر اهله

وقد شرونا غاية السرور بما نالت اعمالهم من الاستحسان لدى المستشرقين وفي اقوالهم شاهد على حسن حظّهم فيه قاعدة يبعث همّتهم لمواصلة العمل وزيادة تحسينهِ صورةً ومعنًى . وقد نال البعض منهم من كرم الدولة المنتدبة الاوسمة الشرفيّة الدالّة على ارتياحها الى مساعيهم وتقديرها افضالهم

وفي الختام اننا نتمنّى ان تكون هذه المجلّة كأشباهها في الحواضر الاجنبيّة بحسن انتقاد موادّها وبالتحقيق والتدقيق في بسط مضموناتها . ومما تلفت اليه نظر اربابها إحكام طبع الالفاظ الاعجميّة الفرنسويّة والالمانيّة والانكليزيّة التي كثرت في رصفها الاغلاط مع قلّتها فينبو عنها نظرُ الاجانب وما الكمال الّا لله